# الأصول العشرون

يقول الإمام البنا :

أيها الإخوان الصّادقون

أركان بَيعتنا عشرة فاحفظوها :

« الفهم ، والإخلاص ، والعمل ، والجهاد ، والتضحية ، والطاعة ، والثبات ، والتجرد ، والأخوة ، والثقة » .

أيها الأخ الصادق :

إنما أريد بالفهم :

أن توقن بأن فكرتنا « إسلامية صميمة » وأن تفهم الإسلام كما نفهمه ، فى حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز :

١ - الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خُلق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة ، سواءً بسواء .

٢ - والقرآن الكريم والسُنّة المطّهرة مرجع كل مسلم فى تعرُّف أحكام الإسلام، ويُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ، ويُرجع فى فهم السُنّة المطّهرة إلى رجال الحديث الثقات .

٣ - وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب مَن يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

٤ - والتمائم والرُّقى والوَدعُ والرَمْلُ والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكَر تحجب محاربته « إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

٥ - ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه ، وفيما يحتمل وجوهاً عدة وفي المصالح المرسلة ، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية . وقد يتغير بحسب الظروف والعُرف والعادات . والأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني ، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحِكم والمقاصد .

٦ - وكل أحد يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء عن السَلَف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسُنَّة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسُنَّة رسوله أولى بالاتباع ، ولكنَّا لا نعرض للأشخاص - فيما اخْتُلِفَ فيه - بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نِيَّاتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدَّموا .

٧ - ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح مَن أرشده وكفايته . وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

٨ - والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين ، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ، ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب .

٩ - وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل ، فالخوض فيها من التكلف الذى نُهينا عنه شرعاً ، ومن ذلك : كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم ، وما شَجَرَ بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صُحبته وجزاء نيّته ، وفى التأول مندوحة .

١٠ - معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه ، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ؛ ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنَا ﴾ (١) .

١١ - وكل بِدعة فى دين الله لا أصل لها - استحسنها الناس بأهوائهم ، سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها .

١٢ - والبِدعة الإضافية والتَّركِيَّة والالتزام فى العبادات المطلقة خلاف فقهى، لكل فيه رأيه ؛ ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان .

١٣ - ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عُرِف من طيب أعمالهم قُربة إلى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم .

١٤ - وزيارة القبور أياً كانت سُنّة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن

---

(١) آل عمران : ٧

(٢) يونس : ٦٣

قُرب أو بُعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة .

١٥ - والدعاء إذا قُرِنَ بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة .

١٦ - والعُرف الخاطئ لا يغيِّر حقائق الألفاظ الشرعية ، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها ، والوقوف عندها . كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين ، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء .

١٧ - والعقيدة أساس العمل ، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة ، وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعاً ، وإن اختلفت مرتبتا الطلب .

١٨ - والإسلام يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شئ . و « الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها » .

١٩ - وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى . فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ؛ ويؤوّل الظنى منهما ليتفق مع القطعى ، فإن كانا ظنّيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار .

٢٠ - لا نكفِّر مسلماً أقرَّ بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدّى الفرائض - برأى أو معصية - إلا إن أقرَّ بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذَّب صريح القرآن ، أو فسَّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .

وإذا علم الأخ المسلم « دينه » فى هذه الأصول ، فقد عرف معنى هتافه دائماً: « القرآن دستورنا والرسول قدوتنا » . ا هـ .

حسن البنا

* * *

# لماذا قدّم الإمام البنا ركن « الفهم » ؟

قبل أن أبدأ فى شرح الأصول أجيب عن بعض الأسئلة التى تدور بخلد بعض الناس .

فقد يعن للقارئ هنا سؤال ، وهو : لماذا جعل الإمام البنا « الفهم » هو الركن الأول ، وقدّمه على غيره من الأركان الأخرى ، كالإخلاص والعمل والتضحية والجهاد والثبات ؟

والواقع أن البنا - رضى الله عنه - كان موفقاً كل التوفيق فى هذا التقديم، ولا غرو ، فقد كان الرجل بصيراً بـ « فقه الأولويات » وتقديم ما يستحق التقديم .

فما لا ريب فيه أن الفكرة تسبق الحركة ، وأن التصور الصحيح مقدمة ضرورية للتوجه الصحيح ، والعمل المستقيم . ولهذا كان العلم عندنا - نحن المسلمين - يسبق العمل ، بل العلم عندنا دليل الإيمان ، وطريق الاعتقاد السليم .

والإمام الغزالى وغيره من الصوفية الكبار يرون أن مقامات الدين ، والتخلق بأخلاق النبيين والصدِّيقين لا يتم إلا بمعجون مركّب من ثلاثة أشياء : علم وحال وعمل ، فالعلم يورث الحال ، والحال يدفع إلى العمل .

وهو يشبه ما يقوله علماء النفس عن الإدراك والانفعال والنزوع ، وهى ثلاثة يفضى بعضها إلى بعض ، بمعنى أن الإنسان يعرف ويدرك ، فيتأثر وينفعل رَغَباً أو رَهَباً ، فينزع ويريد إيجاباً أو سلباً .

وهذا الترتيب واضح فى القرآن الكريم .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

والعطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب ، أى أن العلم يترتب عليه الإيمان ، والإيمان يترتب عليه الإخبات ، فهم إذا علموا آمنوا ، وإذا آمنوا أخبتوا .

ويقول تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٢) .

فقدَّم الأمر بالعلم ﴿ فاعلم ﴾ على الأمر بالعمل وهو الاستغفار .

قال الإمام البخارى فى كتاب العلم : « باب العلم قبل القول والعمل » لقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾ ... الآية فبدأ بالعلم ، قال الشرَّاح : أراد أن العلم شرط فى صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما ، لأنه مصحح للنية المصححة للعمل ، فنبه المصنف على ذلك ، حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم : « إن العلم لا ينفع إلا بالعمل » تهوين أمر العلم والتساهل فى طلبه (٣) .

والخطاب فى الآية وإن كان للنبى ﷺ ، فهو متناول لأمته بلا نزاع .

وأخطر ما يصيب الإنسان أن تلتبس عليه الأمور ، فيرى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والسُّنَّة بدعة ، والبدعة سُنَّة ، وأن يُزيَّن له سوء عمله فيراه حسناً ، وقد قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم

---

(١) الحج : ٥٤ (٢) محمد : ١٩

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ، ط . دار الفكر ، تصويراً عن ط . السلفية بإشراف الشيخ عبد العزيز بن باز ، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

بالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (١) .

وقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ... ﴾ (٢) .

ولهذا كان من الأدعية المأثورة : « اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه » .

وجاء فى بعض الأحاديث التحذير من زمن يصبح فيه المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وهذا كله من قلة العلم .

ولهذا لم يخل كتاب من كتب الحديث المصنَّفة على الأبواب من إفراد كتاب للعلم ، كما فى الصحيحين والسنن ، وغيرها ( كالمستدرك ومجمع الزوائد ) .

وكان أول كتاب من كتب « إحياء علوم الدين » الأربعين هو كتاب العلم .

وأول عقبة يجب أن يقطعها السالك فى طريقه إلى اللّه هى « عقبة العلم » كما فى كتاب « منهاج العابدين » للغزالى أيضاً .

ولقد حذَّر الربانيون من أئمة السَلَف - رضى اللّه عنهم - من الإقبال على التعبد ، قبل التزود من العلم ، فقال الخليفة الراشد عمر بن العزيز : العامل على غير علم يُفسد أكثر مما يصلح (٣)

وقال الإمام الحسن البصرى : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم ، فإنَّ قوماً طلبوا العبادة وتركوا

---

(١) الكهف : ١٠٣ - ١٠٤ (٢) فاطر : ٨

(٣) ذكره ابن الجوزى فى سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه ص . ٢٥

العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا [١] .

يعنى بهؤلاء : الخوارج الذين استحلوا دماء الأمة وأموالها ، وكفَّروا الناس بالجملة ، برغم أنهم كانوا صُوَّاماً قُوَّاماً قُرَّاءً للقرآن ، كما وصفهم الحديث : « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وصيامه إلى صيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم» ولكن آفتهم أنهم :« يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم » أى أنهم لم يتعمقوا فى فهمه فانتهى بهم الأمر إلى أنهم « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » ! [٢] .

ومن هنا كان لا بد من العلم قبل العمل ، كما قال معاذ - رضى الله عنه - : « العلم إمام العمل ، والعمل تابعه » [٣] .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم - وقد ذُكِر له رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالِم - : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » [٤] .

إنَّ العلم الشرعى فريضة وضرورة للإنسان المسلم ، حتى قال بعض السَلَف : إنَّ حاجة المرء إلى العلم أشد من حاجته إلى الطعام والشراب . وهذا صحيح ؛ لأنه إذا فقد الطعام والشراب هلك بدنه ، وإذا فقد العلم هلك روحه . وأين مَن خسر الحياة الفانية ممن خسر الحياة الأبدية الباقية ؟!

وضرورة الإنسان المسلم للعلم تتمثل فيما يلى :

(أ) فهو الوسيلة الفذَّة لتمييز الحق من الباطل فى العقائد ، والصواب من الخطأ فى الأفكار . وذلك بما يضعه من أصول وضوابط ، لاستقامة الفهم ، وصحة الاستدلال .

---

(١) ذكره ابن القيم فى مفتاح دار السعادة ١ / ٨٣ .

(٢) انظر فى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى المتفق عليه « اللؤلؤ والمرجان » حديث ٦٣٩ وما بعده .

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم ، وغيرهما ، ورفعه بعضهم ، والصواب وقفه .

(٤) رواه الترمذى عن أبى أمامة وقال : حسن صحيح غريب ( ٢٦٨٦ ) ط . حمص .

(ب) وهو الوسيلة الفذّة لتمييز المشروع من غير المشروع فى الأعمال . أى تمييز الحلال من الحرام فى الأشياء والتصرفات ، والمسنون من المبتدع فى القُربات والعبادات ، والحسن من القبيح فى الأخلاق والسلوك ، وهو الذى يضع القواعد والأُطر الضابطة لذلك كله .

(جـ) وهو الوسيلة الفذّة لإعطاء الأعمال والتكاليف مراتبها الشرعية الصحيحة ، ففى المأمورات يقول : هذا مُستحَب ، أو واجب أو فرض ، وهو فرض عين أو فرض كفاية ، وهو فرض عادى أو فرض مؤكد مثل أركان الإسلام .. وفى المنهيات يقول : هو مكروه أو مشتبه فيه ، أو حرام ، وفى الحرام : هو صغيرة أو كبيرة ، أو من أكبر الكبائر .

(د) - ثم هو الوسيلة الفذّة للحكم العادل على الأفراد والجماعات ، وتقويم المواقف والأحداث تقويماً سليماً ، بعيداً عن الشطط والهوى ، وعن الإفراط والتفريط.

* * *

● لماذا عبَّر الأستاذ بـ « الفهم » بدل « العلم » ؟

وإنما عبر الأستاذ البنا عن « العلم » بـ « الفهم » لأنه المقصود من العلم ، فليس العلم بكثرة الرواية بقدر ما هو عمق الدراية ، ولهذا علّق القرآن والسُنّة الخير « بالتفقه فى الدين » لا بمجرد « تعلم الدين » .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول الرسول ﷺ : « مَن يُرِدِ اللّه به خيراً يفقهه فى الدين » (٢) . والفقه

---

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) متفق عليه من حديث معاوية .

أخص من العلم ، فهو يعنى الفهم بل الفهم الدقيق ، الذى ينفذ إلى اللباب ، ولا يكتفى بالقشور وهو الذى يُنير العقل ، ويُحيى القلب [١] .

* * *

## ● صحة الفهم من أعظم النعِم :

يقول العلامة ابن القيم فى شرح ما جاء فى « كتاب عمر فى القضاء » عند قوله : الفهم الفهم فيما أدلى إليك : « صحة الفهم وحُسْن القصد من أعظم نعم الله التى أنعم بها على عبده ، بل ما أُعْطِىَ عبدٌ عَطَاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجَلّ منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامُهُ عليهما ، وبهما يأمن العبد طريقَ المغضوب عليهم الذين فَسَدَ قَصْدُهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومُهم ، ويصير من المُنْعَم عليهم الذين حَسُنت أفهامهم وقُصُودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدِيَنا صراطَهم فى كل صلاة ، وصحة الفهم نورٌ يقذفه الله فى قلب العبد ، يميز به بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، ويمدُّه حسن القصد ، وتَحَرِّى الحق ، وتقوى الربِّ فى السر والعلانية ، ويقطع مادتَه اتباعُ الهَوَى ، وإيثارُ الدنيا ، وطلب محمدة الخلق ، وترك التقوى » [٢] .

وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن علىٍّ رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه أنه سُئل : هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشئ ؟ . قال : لا ، إلا فهماً يُؤتاه عبد فى كتاب الله ، وما فى هذه الصحيفة .. وأخرج صحيفة فيها بعض الأحكام ..

---

(١) بيَّن الإمام الغزالى فى كتاب « العلم » من « الإحياء » أن كلمة « الفقه » من الكلمات التى بُدِّلت معانيها عما تدل عليه فى القرآن والسُّنَّة ، وعما كان يفهمه منها الصحابة وسَلَف الأمة .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٨٧ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

فالفهم عن الله ورسوله من أعظم النعم .

وشر ما يصاب به إنسان عدم الفهم عن الله ورسوله .

وشر منه أن يفهم عن الله ورسوله عكس ما يريدانه ، فيحرِّف الكلم عن مواضعه . وهذه أسوأ الآفات .

* * *

● لماذا نعنى بشرح هذه الأصول ؟

وسؤال آخر قد يعرض لبعض الناس ، بل قالوه .

قالوا : لِمَ كل هذه العناية بهذه الأصول ؟ وهل هى من كلام الله تبارك وتعالى ، أو من كلام رسوله ﷺ ، حتى تتناولوه بالشرح والتفسير والتحليل ؟

وبعبارة أخرى : هل تعتبرون إمامكم من أهل العصمة ؟!

هل كان حسن البنا معصوماً ؟

لا ، والله ، لم يدَّع ذلك يوماً ، ولم يدَّعه له أحد من أصحابه وتلاميذه ، برغم فرط حبهم له ، وإعجابهم به ، وثنائهم عليه .

كيف وهو الذى جعل أحد أصوله العشرين : أنَّ كل واحد يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا النبى ﷺ ؟ ( الأصل السادس ) .

فلماذا - إذن - نعنى بكلامه ونشرحه ؟ حتى قال بعض الناس : هل هو قرآن أو حديث حتى تشرحوه ؟!

وقائل هذا قليل البضاعة من العلم بالدين والتراث والحياة . فليس القرآن وحده هو الذى يُفسَّر ، ولا الحديث وحده هو الذى يُشرح ، فكم من كتب أَلَّفها بَشر غير معصومين ، كُتبت عليها الشروح المختصرة ، والوسيطة ، والمطوَّلة ، وكتبت على الشروح حواش ، وعلى الحواشى تقريرات وإفادات .

وهذا فى كل العلوم : الدينية وغير الدينية ...

فى علم العقيدة نجد : شرح « الفقه الأكبر » للإمام أبى حنيفة ، وشرح العقيدة الطحاوية ، وشرح العقيدة الواسطية ، وشرح السنوسية ، والعقائد النسفية ، والجوهرة ، وغيرها ..

وكنا - ونحن طلبة فى كلية أصول الدين بالأزهر - ندرس « العقائد النسفية » وعليها شرح للعلاَّمة سعد الدين التفتازانى ، وعلى الشرح ثلاث حواش ، لكل من : الخيالى ، والعصام الاسفراييني ، وعبد الحكيم السيالكوتى .

وفى الفقه : عُرِفت المتون الشهيرة فى المذاهب ، مثل « الكنز » و « الهداية » عند الحنفية ، و « الرسالة » و « مختصر خليل » عند المالكية و « المنهاج » و « أبى شجاع » عند الشافعية ، و « الإقناع » و « المنتهى » و « الزاد » عند الحنابلة ، وكلها حظيت بشروح متعددة ، مختصرة ومطوَّلة ومتوسطة .

وفى الأصول : عُرِفت « ورقات » إمام الحرمين ، ومنهاج البيضاوى ، ومسلم الثبوت ، ومختصر ابن الحاجب ، وتوضيح صدر الشريعة ، وغيرها .

وفى علوم الحديث : عُرِفت مقدمة ابن الصلاح وشروحها ، وتقريب النواوى ، ونخبة ابن حجر .. .. إلخ .

وفى التصوف : عُرِفت حكم ابن عطاء وشروحها ، بل وضع العلاَّمة الزبيدى شرحاً على « إحياء علوم الدين » على سعته .

وفى اللغة وعلومها من النحو والصرف والبلاغة نجد متوناً وشروحاً وحواشى معروفة للدارسين . حتى إن العلاَّمة المرتضى الزبيدى شرح « القاموس » شرحه الضخم المعروف « تاج العروس » .

فلا غرابة - إذن - فى شرح هذه الأصول التى وضعها حسن البنا ، لتكون أساساً لوحدة الفهم عند العاملين للإسلام ، وحرص على أن تكون موجزة كل

الإيجاز ، مركّزة كل التركيز ، بحيث يسهل هضمها وحفظها . فهى أشبه بـ « المتون » فى علم الفقه وغيره من العلوم الإسلامية . والمتون دائماً تحتاج إلى شروح توضّح مراميها ، وتكمل ما سكتت عنه ، وتستدل لما ذكرته من أحكام وقضايا .

* * *

● لمن كتب حسن البنا هذه الأصول ؟

وسؤال ثالث قد يُسأل هنا ، وهو : لمن كتب حسن البنا هذه الأصول العشرين؟ ومَن هو المعنى بخطابه هنا من أصناف الناس ؟

ومن الواضح أنه خاطب بهذه الأصول صنفين :

الأول : الإخوان العاملين أو المجاهدين من جماعة « الإخوان المسلمين » . فمن المعلوم أن « الإخوان » هيئة عامة ، قامت لتجديد الإسلام فى عقول المسلمين ونفوسهم وحياتهم : اعتقاداً وفكراً وخُلُقاً وسلوكاً . وقد ضمت فى صفوفها ألواناً مختلفة من الناس ، منهم السَلَفى ، ومنهم الصوفى ، منهم المتمسك بمذهبه ، ومنهم لا يرى التمذهب . منهم المحافظ الميّال إلى القديم ، ومنهم المتحرر الميّال إلى الجديد . منهم المثقف بالثقافة الشرعية ، ومنهم المثقّف بالثقافة المدنية .. إلخ .

وهذه الأمزجة والاتجاهات المختلفة تحتاج إلى « قواسم مشتركة » فى الفكر ، تجمع بينها ، على اختلاف نزعاتها ، وتُوحّد مفاهيمها الأساسية فى القضايا الكلية ، والمسائل الدينية الكبرى ، وإن بقى بعض الاختلاف فى الفرعيات والتفصيلات التى يتعذر أن يتفق الناس عليها .

الصنف الثانى : يتمثل فى الجماعات والفئات الدينية المختلفة ، التى كانت تضمها الساحة المصرية ، يوم كتب الإمام البنا هذه الأصول ، وهى شبيهة إلى

حد كبير بما نحن عليه اليوم ، وقديماً قال الشاعر العربى : ما أشبه الليلة بالبارحة ! وقال مَن قال من الغربيين : التاريخ يعيد نفسه !

ومهما اختلف الناس فى صدق هذه المقولة ، فإن مما لا يُجحد أن كثيراً من المواقف والأوضاع قد تتكرر أو تتشابه إلى حد بعيد .

أجَلْ .. كانت عين حسن البنا - رضى الله عنه - وهو يكتب هذه الأصول العشرين - مركّزة على الجماعات الدينية المختلف بعضها مع بعض ، التى تتبادل التجريح والاتهام ، إلى حد التفسيق بل التكفير .

وقد رأى ذلك بعينى رأسه ، ولمس آثاره براحتيه ، فمنذ بزغ فجر دعوته بمدينة الإسماعيلية ، حيث الجماعات الدينية ذات الاتجاه السَلَفى أو السُنّى تمثل اتجاهاً، وهى فيما بينها تتراشق التهم ، ثم الجماعات الصوفية بطُرقها ومشايخها وأتباعها وشاراتها ، تمثل اتجاهاً آخر ، معادياً ومناقضاً للاتجاه الأول ، وبينهما حرب جدلية لا يخمد أوارها .

ثم هناك العلماء والوعّاظ والخطباء الذين لا ينتمون لأحد المعسكرين ، والذين لا يعجبون أولئك ولا هؤلاء ، ولا يعجبهم أيضاً أولئك ولا هؤلاء .

كان هذا ما رآه ولمسه حسن البنا فى الإسماعيلية ، ثم ما رآه بعد ذلك فى القاهرة - بصورة أكبر - بين الاتجاهات الدينية المختلفة .

ولما كان الرجل مشغول الفكر والقلب بتوحيد الأمة المسلمة ، التى فرّقتها الخلافات من كل جانب ، حتى قاتل بعضها بعضاً فى أيام الحرب العالَمية الأولى ، وقد سقطت آخر راية كانت تجمع أمة الإسلام تحت ظل العقيدة ، وهى راية الخلافة سنة ١٩٢٤ ، وبرزت النزعات القومية والوطنية ، بديلاً للوحدة الإسلامية ، والقومية الإسلامية .

لهذا كان من المهم - بل من الضرورى - توحيد الجبهة الداخلية الإسلامية بكل وسيلة ممكنة : جبهة الداعين إلى الإسلام ، والرافعين لشعاراته المتنوعة

والعمل على تضييق دائرة الخلافات الدينية والفكرية بينهم ، وجمعهم على «الحد الأدنى » من الأصول والمفاهيم الإسلامية التى تُوحِّد ولا تُفرِّق ، وتُقرِّب ولا تُباعِد .

وحين أنشئ اتحاد للجماعات الدينية فى مصر ، أو حين أريد انشاؤه تقدَّم الشهيد بهذه الأصول المركَّزة ، لتكون محوراً تلتقى عليه هذه الجماعات المختلفة .

* * *

● من مزايا هذه الأصول :

ومن هنا نلاحظ فى هذه الأصول عدة أمور :

أولاً : أنها تتجه غالباً إلى المسائل التى تختلف فيها وجهات النظر ، بين المدارس الدينية قديماً وحديثاً ، كالخلاف بين السَلَف والخَلَف من المتكلمين ، والخلاف بين الاتجاه الصوفى والاتجاه السَلَفى ، والخلاف بين أنصار التقليد المذهبى و « اللامذهبيين » ..

ثانياً : أنها مصوغة بحكمة واعتدال ، بحيث يمكن أن يلتقى عليها العقلاء من أتباع هذه المدارس ، إذا توافر القدر الضرورى من الفهم والإخلاص والتسامح .

ثالثاً : أنه قصد فيها إلى التركيز والإيجاز ، لا إلى الشرح والتفصيل ، لأن التوسع والتفصيل فى هذه الأمور ، يتيح فرصة أكبر للخلاف ، وتعدد الآراء وتضاربها وهو عكس المقصود .

رابعاً : أنها لم تعن كثيراً بالتوجه إلى العلمانيين والمثقفين ثقافة غربية ، ولو كان ذلك من قصدها واهتمامها ، لأضافت إلى هذه الأصول أصولاً أخرى .

ولهذا حين أردتُ أن أقدِّم معالم الإسلام لهؤلاء فى كتابى « الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه » ذكرتُ ثمانية عشر معلماً ، أو أصلاً ، ذات مضمون

آخر ، ووجهة أخرى [1] ، وأعتقد أنه لو كان الإمام الشهيد مكانى لفعل مثل ما فعلت ، ولكل مقام مقال .

وأود أن أقول كلمة هنا عن اتجاه التوحيد والتجميع والتوفيق بين المختلفين ، الذى تميَّزت به صياغة الإمام الشهيد لهذه الأصول .

* * *

● اتجاه التجميع والتوفيق :

ولا ريب أن الاتجاه التوحيدى والتوفيقى ، فى هذه الأصول واضح ، كل الوضوح ، وحينما بدأتُ أكتب فى شرح هذه الأصول ، وعلى الأصح أنشر بعض ما كان عندى من شرحها ، عندما بدأت مجلة « الدعوة » فى الظهور فى أوائل السبعينات بإشراف المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمسانى - رحمه اللّه - ، جعلت لها عنواناً أساسياً ثابتاً ، هو : « نحو وحدة فكرية إسلامية » ، ومن توفيق اللّه لنا أن شيخنا الغزالى - حفظه اللّه ومَدَّ فى عمره فى خدمة الإسلام - لحظ هذا الملحظ نفسه ، فسمى كتابه الذى شرح فيه هذه الأصول العشرين « دستور الوحدة الثقافية المسلمين » .

وقد كان التكوين العقلى والنفسى لحسن البنا يتجه إلى البناء لا الهدم ، وإلى الجمع لا التفريق .

وهذا هو السر فى أن الإمام حسن البنا لم يفصل فى بعض الأمور ، وتركها لكل فريق يرى فيها رأيه ، حسبما يلوح له من الأدلة ، كما فى موضوع «التوسل » بالنبى ﷺ أو بالصالحين .

فبعد أن أكَّد ضرورة أن يكون المدعو والمتوسَل إليه هو اللّه تبارك وتعالى ذكر أن قضية التوسل ( بجاه النبى ونحوه ) تدخل فى مسائل « الفروع العملية » التى يبحث فيها علم « الفقه » وليست من « الأصول العقائدية » التى يبحث

---

(١) انظر : كتابنا « الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه » ص ٣٦ - ٤٧ ط . دار الصحوة بالقاهرة .

فيها علم « التوحيد » لأنها تتعلق بالخلاف فى كيفية الدعاء ، فتخرج بذلك من العقيدة إلى العمل .

وبعض المتحمسين لوجهة معيَّنة يعيبون على الشيخ - رحمه اللّه - أنه لم يحسم فى هذا الأمر ، برأى قاطع ، وذلك لأنهم ينظرون من زاوية غير زاويته ، ويسعون إلى هدف غير هدفه ، ويسلكون سُبلاً غير سبيله .

فالرجل يريد أن يجمع الأمة على الأهداف الكبرى ، وأن يحشد صفوفها - على اختلاف وجهاتها - فى مقابلة القوى المعادية للإسلام جهراً ، والمتربصة به سراً ، ويحرص على أن تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

وليس معنى هذا أن يتنازل عن أساسيات الإسلام ، فهذا غير وارد فى هذا المقام بحال من الأحوال .

ولهذا أنكر ادعاء الكشف والإلهام والرؤى ، واعتبارها مصدراً للأحكام والسلوك ، وأنكر الخرافات والشركيات المتعلقة بالتمائم والرُّقى والكهانة وزيارة القبور والغلو فى الأولياء والكرامات ونحوها .

كما أنكر الابتداع فى الدين ، وشرع ما لم يأذن به اللّه .. .. إلخ .. ودعا إلى التمسك بالكتاب والسُّنَّة ، والرجوع إليهما فى معرفة أحكام الإسلام .

فالتجميع والتوفيق الذى حرص عليه الإمام البنا إنما هو فى الأمور التى تتعدد فيها الاجتهادات وتختلف فيها وجهات النظر ، فلا بأس من تركها دون حسم .

وهذا هو شأن الراسخين من أهل العلم ، الذين كثيراً ما يُسألون فيقولون : لا ندرى ، أو يذكرون أقوال أهل العلم قبلهم واختلافهم فيها ، ولا يرجحون قولاً على قول .

وقد روى هذا عن الإمام الشافعى رضى الله عنه فى عدد من المسائل ، وعقّب على ذلك الإمام الرازى فى « المحصول » فقال : هذا يدل على كمال منصبه فى العلم والدين .

« أما العلم - فلأن كل مَن كان أغوص نظراً ، وأدق فكراً ، وأكثر إحاطة بالأصول والفروع ، وأتم وقوفاً على شرائط الأدلة : كانت الإشكالات عنده أكثر .

أما المصرّ علىّ الوجه الواحد - طول عمره - فى المباحث الظنية بحيث لايتردد فيه : فذلك لا يكون إلا من جمود الطبع ، وقلة الفطنة ، وكلال القريحة ، وعدم الوقوف على شرائط الأدلة والاعتراضات .

وأما الدين - فمن وجهين - :

الأول : أنه لما لم يظهر له فيه وجه الرجحان : لم يَسْتَحِ من الاعتراف بعدم العلم ، ولم يشتغل بالترويج والمداهنة ، بل صرّح بعجزه عما هو عاجز فيه . وذلك لا يصدر إلا عن الدين المتين .

كيف - وقد نُقِل عن عمر - رضى الله عنه - اعترافه بعدم العلم ، فى كثير من المسائل [1] . وجميع المسلمين عدُّوا ذلك من مناقبه وفضائله ، فكيف جعلوه عيباً ههنا ؟!

والثانى : وهو أنه - رضى الله عنه - لم يقل ابتداءً : « إنى لا أعرف هذه المسألة » بل وجد المسألة واقعة بين أصلين ، فذكر وجه وقوعها بينهما ، وكيفية اشتباهها بهما . ثم لما لم يظهر له الرجحان - تركها على تلك الحالة ليكون ذلك بعثاً له على الفكر بعد ذلك ، وحثاً لغيره من المجتهدين على طلب الترجيح .

---

(١) نحو هذا روى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - فى مواضع كثيرة ، منها ما يتعلق بميراث الجد والإخوة ، وميراث الكلالة ، وبعض أبواب الربا ، وقد أخرج ذلك عنه البخارى ومسلم وغيرهما. وانظر سنن البيهقى : ( ٦ / ٢٤٥ ) ، وفتح القريب ( ١ / ٣٩ ) .

وهذا هو اللائق بالدين المتين ، والعقل الرصين ، والعلم الكامل .. بل مَن أنصف واعترف بالحق : علم أن ذلك مما يدل على رجحان حاله ، على حال سائر المجتهدين : فى العلم والدين [١] .

وما لاحظه الإمام البنا منذ نحو نصف قرن - من الحاجة إلى التجميع والتوفيق - لا زلنا نلاحظه إلى اليوم .

ففى البلاد التى زرتها داخل العالَم الإسلامى ، وفى الجاليات والتجمعات الإسلامية التى التقيتُ بها خارج العالَم الإسلامى ، وفى المؤتمرات والندوات التى شاركتُ فيها فى أقطار شتَّى فى المشرق والمغرب - كان هناك سؤال مشترك يتكرر ويلح ويضغط علينا . نحن الداعين للإسلام ، والمنتمين إلى الجماعات والحركات الإسلامية .

هذا السؤال يقول : لماذا يظل الخلاف قائماً بين الجماعات الإسلامية ؟ ولماذا لا تتوحد كلها فى جماعة أو حركة إسلامية عالَمية كبرى ، بدل هذه الجماعات المتفرقة المتناثرة ؟! إن الاتحاد يقوى القلة ، والاختلاف يضعف الكثرة ! ولماذا الاختلاف بينها ؟ أليست كلها تعمل لنُصرة الإسلام ، وإقامة دولة الإسلام ؟! أوَ ليس الإسلام هدف الجميع ، ومنطلق الجميع ؟ فلماذا يتفرقون ولا يجتمعون؟ ولماذا يختلفون ولا يتوحدون ؟

وكم تمنى دعاة مخلصون أن تقوم فى عصرنا حركة إسلامية عالَمية واحدة ، تضم كل الحركات ، وتستوعب كل الطاقات ، فتكون أقدر على التصدى لتكتلات القوى المعادية ، ومؤامرات الصهيونية ، والصليبية ، والشيوعية والوثنية ، التى قد تختلف فيما بينها وتتفق علينا .

---

(١) المحصول فى علم أصول الفقة للإمام فخر الدين الرازى - تحقيق د . طه جابر العلوانى جـ٢ قسم ٢ ص ٥٢٧ ، ٥٢٨

ومما لا يخفى على دارس أن هناك عقبات جمة تقف فى سبيل هذه الوحدة المرغوبة .

فالوحدة تقتضى الاتفاق على الأهداف ، وعلى ترتيبها .

ثم على المناهج والوسائل التى تُتخذ لتحقيق الأهداف المنشودة .

ثم على القيادة والثقة بإخلاصها ، وكفايتها ، وقُدرتها على استخدام تلك الوسائل لتحقيق تلك الأهداف .

وهذا ليس من اليسير أن يتوافر إلا داخل الجماعة الواحدة .

ولهذا أرى أن الحلم بالحركة التى تستوعب كل الحركات ، أو الجماعة التى تضم كل الجماعات - حلم جميل ، ولكنه - بمنطق الواقع - بعيد التحقيق .

واعتقادى الذى سجلته فى أكثر من كتاب : أنه ليس من الضرورى توحيد الجماعات الإسلامية ، وصبها فى قالب واحد . بل يكفى التقريب بينها ، وإزالة أسباب التنافر والتناكر بين بعضها وبعض ، والعمل على أن يكون بينها قدر من التنسيق والتفاهم والتعاون . بحيث يكمل بعضها بعضاً ، وبحيث تقف فى القضايا الكبيرة جبهة واحدة ، كالبنيان المرصوص . وبهذا يكون اختلافها اختلاف تنوع وثراء ، لا اختلاف تناقض وصراع .

ومما يعين على هذا التقارب والتفاهم والتعاون ما ذكرناه من ضرورة توفير « حد أدنى » من « المفاهيم المشتركة » التى تجمع بين المتفرقين ، وتقارب بين المتباعدين ، وتوثق الصلة بين المتقاربين . وهذا ما يمكن أن تؤديه هذه الأصول إلى حد كبير .

* * *